من آيات الله

فى الأسرة

قال الله تعالى فى سورة الروم: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [الروم: ٢١]

فهذه الآية تضمنت آيات، وكلها تشير إلى فيض الحكمة الإلهية. فمن آياته الدالة على قدرته سبحانه وتعالى، أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً أى من جنسكم فى البشرية والإنسانية والأزواج جمع زوج. والمراد به فى الآية «المرأة» بقرينة عودة الضمير إليها مؤنثاً فى قوله تعالى: ﴿**لتسكنوا إليها**﴾.

ومعنى هذا: أن المرأة من الرجل، وأن الرجل من المرأة، وأنهما من جنس واحد، وطبيعة واحدة هى الطبيعة الإنسانية. وأنه سبحانه وتعالى خلق من هذا الجنس زوج المرأة، كما خلق منه زوج الرجل، ليسكن إليها وتسكن إليه، ما دامت المرأة والرجل من معدن واحد، فخصائصهما ومابه إنسانيتهما واحدة، وليس أحدهما أدخل فى باب الإنسانية من الآخر، ولن يكون شئ من الذكورة أو الأنوثة شافعاً أو رافعاً لأحدهما، ومانعاً أو خافضاً للآخر فى مجالات العمل والتكاليف، وما يتبعها من ثواب وعقاب. قال تعالى: ﴿**من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾.

والسكون فى قوله تعالى: ﴿**لتسكنوا إليها**﴾ من أروع الأساليب البلاغية التى تفى بالمقصود فى عبارة موجزة، والسكون أعم من أن يكون قاصراً على السكون العاطفى، فهو يشمل سكون النفس وارتياحها واطمئنانها، وسكون الجسد بالركون إلى شريك الحياة، وسكون الروح للعبادة، والسمو فى ملكوت الله، وسكون الاقتصاد بالتعاون المثمر فى بناء الأسرة.

والزوج والزوجة فى حاجة إلى الرباط النفسى حاجتهما إلى رباط الجسد، وفى حاجة إلى السكينة الروحية حيث يجد كلا منهما فى الآخر الراعى والرفيق خاصة إذا تقدمت بهما السن.

ولا يخفى أن الزواج بما فيه من سكينة النفس، وارتياح القلب، معين على العفة والحصانة الخلقية. قال رسول الله ﷺ: «ما استفاد المؤمن بعد تقوى الله عز وجل خيراً له من زوجة صالحة، إن أمرها أطاعته، وإن نظر إليها سرته، وإن أقسم عليها أبرته، وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله».

فالسكون النفسى، والسمو الروحى، والارتياح القلبى، والاطمئنان النظرى، والإحساس بالأمن والأمان، والشعور بالسعادة، والتعاون المثمر، وتبادل المشورة والاستقرار، كل ذلك تضمه عبارة ﴿**لتسكنوا إليها**﴾ وعودة الضمير إلى مؤنث فى «إليها». يشعر بحاجة الرجل إلى هذا السكون، ويوحى بأهمية الزوجية فى الحياة.

ومجئ عبارة ﴿**لتسكنوا**﴾ مرتبطة بواو الجماعة الدالة على الذكور، يشير إلى دور الرجال فى السعى إلى هذا السكون، الذى هو من لوازم الحياة.

روى الإمام أحمد والترمذى عن ثوبان أن النبى ﷺ قال: «ليتخذن أحدكم قلباً شاكراً ولساناً ذاكراً وزوجة مؤمنة تعينه على آخرته».

والمودة تشير إليها الآية بقوله تعالى: ﴿**وجعل بينكم مودة**﴾ والمودة: المحبة، وهى أمر يعم الزوجين وأسرتيهما. وتبدو هذه الظاهرة فى أن الزوج لا يتعامل فقط مع زوجته، وإنما مع أسرتها كذلك، فتنشأ بينه وبينها صلات وعلاقات ودية، أو هكذا ينبغى أن يكون.

ولعل المتأمل يدرك أن المودة تتحقق بين الزوج وزوجته وأسرتيهما فى حالة البناء، وتعمير البيت. لأن كلمة «بينكم» تفيد الاقتران، والاقتران مدعاة للحب الصادق والمودة الصافية، كما أن الفعل الماضى «جعل» فى ﴿**وجعل بينكم مودة**﴾ يفيد أن المودة تنشأ من التعامل القائم بين الزوجين، وهذا دافع لأن يحرص كلا من الزوجين على ما هو أحسن وأفضل.

قال تعالى: ﴿**وجعل بينكم مودة ورحمة**﴾ والرحمة من الرحم. والرحمة: الرقة والتعاطف، والرقة والتعاطف ينشئان بعد المودة والمحبة، ولهذا كان قوله تعالى: ﴿**وجعل بينكم مودة ورحمة**﴾ آية من آيات الله التى توقظ أحاسيس من كان له قلب. والرحمة التى جعلها الله تنشأ بالزواج تتم فى بيت الزوجية، وتنمو، وتزداد بالثمرات التى أينعت من بنين وبنات.

والرحمة التى تنشأ بالتراحم والتعاطف والحب، تستكن فى نفوس الوالدين نحو الأولاد، وتمتد إلى أقارب الأبناء من جهة الزوج ومن جهة الزوجة، ثم أقارب الأقارب وهكذا إلى أن تغدو هذه العواطف أساس التعامل فى المجتمع الإنسانى.

وتبدو أصول التربية واضحة فى هذه الآية. فغراس الرحمة الذى نبت فى ظلال زوجين، وترعرع فى بيت على المودة، هذا الغرس الطاهر: سلوك تربوى يُحَسُّ، وَيُبْصرُ، وَيُسْمَعُ.

وعلى هذا فالبيت عامل بيئى رئيسى، يتلقى الطفل فيه أحسن المشاعر، وأنبل العواطف.

والرحمة بين الزوجين مدرسة تربوية متكاملة لصقل الإنسان وتربيته وتحليته بالفضائل، ومكارم الأخلاق، والباسه لباس الأدب، لينشأ وقد عود على الرحمة والرفق والحنان.

ومن لم يتدرب فى البيت على هذا التعامل فليس أهلاً لأن يكون إنساناً ولقد رأى الأقرع بن حابس أن النبى ﷺ يقبل الحسن بن على فقال: إن لى عشرة من الأولاد ما قبلت واحداً منهم. فقال عليه الصلاة والسلام «إن من لا يرحم لا يُرحم».

ويروى أن أحد الولاة دخل على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فرآه يقبل طفلاً فكأنما رأى أمراً غريباً على بصره، ثقيلاً على نفسه لأنه لا يمارسه، فأظهر دهشته، واستغرابه، فلم يلبس عمر أن عزله عن الولاية.

إن فى ذلك لآيات عظيمة الشأن بديعة البيان، واضحة الدلالة، على قدرته سبحانه وتعالى لقوم يتفكرون، لأنهم الذين يقتدرون على الاستدلال. ولأنهم إذا تفكروا فى الأصول التكوينية التى خلق الله الإنسان عليها ﴿**يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى**﴾ وعرفوا أن الذكورة والأنوثة داعيتين إلى الاجتماع المنزلى، والمودة والرحمة، باعثتين إلى الاجتماع المدنى. عثروا من عجائب الآيات الإلهية فى تدبير أمر هذا النوع ما يبهر به عقولهم، وتدهش به أحلامهم.

* * *

obeikandl.com